الإمام الغزالي ومنهجه فى التصوف

د / فضلون محمد محمد مصطفى

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

المقدمة

الحمد لله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه فـى ملكه أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد رسول الله الذى جاءنا بالهدى والبيان ليخرجنا من الظلمات إلى النور .

اللهم صل وسلم وبارك عليك سيدى يا رسول الله وعلى آلك وأصحابك إلى يوم الدين .

وبعد ،،،

فمما لا شك فيه أن الإمام الغزالى – رحمه الله – هو أحد أعلام الفكر الإسلامى والفكر الإنسانى بوجـه عـام كما أنه أحد العباقرة الذين تعددت جوانـب نبـوغهم وعطـائهم الجـامعين للمعرفـة الموسـوعية التـى شملـت العلـوم الشرعية فى عصره ، فقد شملت معارفه الفقه والأصول والكلام والمنطق والفلسفة والتصوف والأخلاق وصنف فـى كـل منهما تصانيف تشهد له بالعمق والأصالة والتفوق وطول الباع .

ومن ناحية أخرى فهو أحد أقطاب التصوف والمجاهدة الروحية ورجال التربية والدعوة إلى الله تعالى وهذه حقيقة واضحة وثابتة ، وقد اعترف بها الأعداء قبل الأحياء ، ولا ينكرها إلا إنسان مـلأ الحقـد قلبـه وطمـس علـى بصره وبصيرته .

والذى دفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع عدة أسباب :

أولاً : أن الإمام الغزالى رحمه الله تعالى شخصية فذة ، لم يسبق لها مثيل فى الفكر الإسلامى ، لأنه استطاع بأعمالـه أن يحتفظ بمكانته على مر العصور والأزمان .

ثانياً : أن الإمام الغزالى كان له تأثير كبير إلى اليوم على العالم الإسلامى أجمع فى شتى المجالات العلمية .

ثالثاً : أن الإمام الغزالى اتخذ من التصوف منهجا خاصا ، وهو طريق الوصول إلى المعرفة وهذا المنهج لم يسلكه أحـد من قبله على الإطلاق .

ولقد قسمت البحث إلى خمسة مباحث رئيسية :

المبحث الأول : حياة الإمام الغزالى ونشأته .

المبحث الثانى : نظرية المعرفة عند الإمام الغزالى .

المبحث الثالث : نظرية الكشف عند الإمام الغزالى .

المبحث الرابع : نظرية الغناء عند الإمام الغزالى .

المبحث الخامس : نظرية السعادة عند الإمام الغزالى .

المبحث الأول

حياة الإمام الغزالى ونشأته

نسبه ومولده :

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، الملقب بحجة الإسلام ، زين العابدين الطوسى الفقيه الشافعى ، وقد اختلف المؤرخون فى لقب أبى حامد بالغزالى ، قيل إنه منسوب إلى غزاله بتخفيف الزاى من قرى طوس ، وقيل إنه كان والده غزالاً يغزل الصوف ويبيعه وهو الأصح[١] .

ولد أبو حامد الغزالى من منتصف القرن الخامس الهجرى ، أعنى سنة ٤٥٠هـ فى طوس إحدى مدن خراسان ، وقد عاجلت المنيه أباه فتركه فقيراً صغيراً فى رعاية أحد الصوفية ، فدفع به هذ الصوفى بدوره إلى مدرسة من المدارس التى كانت تمد الوافدين بما يلزمهم من ظروف العيش[٢] .

حياته العلمية :

لقد تتلمذ الغوالى فى صباه على أحد فقهاء طوس وهو أحمد الراذكانى ، ثم سافر إلى جرجان ليأخذ عن الإمام أبى نصر الإسماعيلى وعاد بعد ذلك إلى طوس ، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس أحد الأئمة المشهورين من المتكلمين الأشعرية هو أبو المعالى الجوينى الملقب بإمام الحرمين ، وقد جد واجتهد حتى برع المذهب والخلاف والجدل والأصلين (علم الكلام وأصول الفقه) والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب العلوم ، وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم[٣] .

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين عام ٤٧٨هـ خرج الغزالى إلى العسكر قاصداً الوزير (نظام الملك) إذ كان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رجالهم ، وظهر كلامه عليهم واعترفوا بفضله فتلقاه الصاحب بالتعظيم وطار اسمه فى الآفاق ، واشتهر فى الأقطار[٤] .

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم فى أوائل حياته العلمية ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ زاهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن . وقد أناف على الخمسين أحكم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، واقتحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة واستشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبدع .

لا أغادر باطنيا إلا وأجب أن أطلع على باطنه ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما إلا واجتهد فى الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتجسس ورائه للتنبه لأسباب جرأته وتعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبى وديدنى .

---

(١) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى ج١ ص ٣ .

(٢) تهافت الفلاسفة – الإمام الغزالى ص ٤٩ .

(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٥٢ .

(٤) لمنقذ من الضلال – الإمام الغزالى ص ٣٠ .

من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها فى جبلتى لا بإجتهادى وحيلتى حتى انحلت على رابطة التقليد وانحسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد الصبا[١] .

ولقد كان الإمام الغزالى قمة فى كل شئ قرأ كل ما وقع فى يده من معارف من سبقوه ، ولم يقتصر على لون معين من الثقافة ، فقد قرأ التفسير والحديث والفقه والنحو وجميع ما يتصل بالعلوم الإسلامية ، ثم قرأ بجوار هذا الفلسفة والمنطق وغيرهما من العلوم وهضمها جميعاً واحكم الرأى فيها ن وأجاد التعبير عنها والرد عليها[٢] .

وتعتبر هذه الفترة أخصب أيام الغزالى فى حياته العلمية ، من حيث التحصيل والعطاء والنضج ، فقد برع فى علوم أستاذه ، كما قرأ لفلسفة وعرف مناهجها وأتقن طرق رد عليها[٣] .

وذلك لأن العصر الذى نشأ فيه الإمام الغزالى تعددت فيه النحل والمدارس العقلية ، وتصارعت فيه الاتجاهات لفكرية ، والدينية داخل الساحة الإسلامية ، ووجد نفسه أمام بحر لجى من اختلاف المذاهب والتيارات متلاطم الأمواج ، عميق القاع ، فلم يقف موقف المتفرج ، ولم يزعجه سعة البحر ، ولا شدة الموج ولا عمق القاع ، ولا كثرة من غرق من قبل ممن لم يحسن الغوص والسباحة بل خاض هذا البحر الخضم خوض الماهر الجسور ، لا خوض الجبان الحذور[٤] .

أقرانه :

وقد تعلم من الإمام الغزالى ورافقه فى نيسابور الكيالهراسى (٥٠٤هـ ١١١٠هـ) وابن المظفر الخوافى (ت ٥٠٠هـ ١١٠٦م) وطكان الجوينى يصف الثلاثة بقوله – الغزالى بحر مغرق ، والكيا أسد مجرف ، والخوافى نار تحرق وقد ذكر ابن الجوزى قول الجوينى للغزالى عندما صنف كتابه (المنخول فى علم الأصول) دفنتنى واناحى فلا صبرت حتى أموت[٥] .

عمله بالتدريس :

عندما توقف الإمام الغزالى فى مجلس الملك على العلماء ، وابطل حجتهم ، واظهر ثقافتهم ، وظهر عليهم أعجب به الملك فولاه ذلك الوزير ، رتبة التدريس فى مدرسة بغداد سنة ٤٨٤هـ[٦] .

وظل الإمام الغزالى يمارس مهنة التدريس أربع سنوات ، ثم ترك بغداد لكى يعتزل الحياة العامة ، وظل عشر سنوات فى عزلة اختيارية وفى خلال هذه المدة أقام بصفة خاصة فى دمشق ، وسافر إلى كل من القدس ومكة والمدينة ، وبعد هذه العزلة الطويلة عاد بناء على أمر السلطان إلى التدريس فى المدرسة النظامية فى نيسابور ولكن لفترة قصيرة ، ثم رجع أخيراً إلى مسقط رأسه ، وهنالك بنى بجوار منزله مدرسة لطلبة العلم وخانقاه للصوفية[٧] .

أقوال العلماء فيه :

قال أبو بكر العربى – شيخنا أبو حامد دخل فى بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر .

وقال الذهبى – الشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة والتصانيف الفظيعة ، علا فى طريقة التصوف ، وتجرد لنصر مذهبهم ، وصار داهية فى ذلك ، وألف فيه تأليفه المشهور ، وأخذ عليه منها مواضع وسادت به ظنون الأمة .

---

(١) المنقذ من الضلال – الإمام الغزالى ص ٣٢ .

(٢) التصوف الإسلامى (نشأته وأطواره) د / جميل أبو العلا ص ٧٩ .

(٣) التصوف الإسلامى (نشأته وأطواره) د / جميل أبو العلا ص ٧٨ .

(٤) الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه د / يوسف القرضاوى ص ٣١ .

(٥) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى ج١ ص ٤ .

(٦) الإخلاف عند الغزالى د / زكى مبارك ص ٤١ .

(٧) المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت د / محمود حمدى زقزوق ص ٥٦ .

وقال ابن الجوزى (صاحب كتاب تلبيس إبليس) جاء أبو حامد فصنف كتاب الإحياء على طريقة القوم ، ملأه بالأحاديث الباطلة ، وهو لا يعلم بطلانها ، وتكلم عن علم المكاشفة وخرج على قانون الفقه .

وقال ابن تيمية فى كتابه (نقض المنطق) كان أبو حامد على فرط ذكائه ، وتأصله ، ومعرفته بالكلام والفلسفة ، وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ، ينتهى فى هذه المسائل إلى الوقوف والحيرة[١] .

ويصفه الدكتور زكى نجيب محمود – بأنه العملاق العظيم ويلخص موقفه بعد فترة الشك فى هذه العبارة أن أريد وإذن أنا إنسان .

والدكتور سليمان دنيا – ينعته بأنه الشخصية الفذة التى حيرت الكاتبين والمحللين.

والدكتور أبو ريده – يقول عنه من أكبر مفكرى الإسلام ولعله أقربهم إلى الابتكار ، وهو بطل من أبطال الإسلام لخالدين ، الذين ناضلوا عنه .

والدكتور أبو ريان – يرى أنه الشخصية التى هيأتها الأقدار للقيام بدور المواجهة الجذرية والحاسمة لتأمر الباطنة ، ودعاوى الفلاسفة وأصحاب المناهج العقلية المعارضة للعقيدة .

هذا إلى جوار ما قاله عنه الأجانب والمستشرقون ومهما يكن من الخلاف من منزلة الغزالى وأثره فى الأمة الإسلامية بالإيجاب أو بالسلب فإن التاريخ يذكر أن جمهور المسلمين قد عرفوه بان حجة الإسلام ومجدد القرن الخامس ومحى علوم الدين .

وأنا المعاصرين مهما اختلفوا فى تقويمه فهو عندهم جميعاً فى الذروة من أعلام الفكر فى الإسلام ، وأعلام الفكر فى العالم ، وأعلام الباحثين عن الحق[٢] .

مؤلفاته :

لم يترك الغزالى التأليف حتى فى سنوات الخلوة التى قضاها فى التنقل والعبادة ، فبلغت مؤلفاته على قصر حياته واضطرابها – عدداً ضخماً يدل على المجهود العظيم الذى بذله لنشر دعوته ، وأكثر مؤلفاته الغزالى تدور حول موضوع واحد هو الفكرة الدينية ، ومن خصائصها وحدة الموضوع ، ووحدة الفكرة ، وقوة التعبير ودقة الأسلوب ، والبعد عن الصناعة اللفظية والصراحة فى القول ، شعر الفارابى فى كل جملة من جمله بأن هناك حياة تتدفق وقلبا يخفق وفكراً يجول وإرادة تعلى وللإمام الغزالى أكثر من مائتى كتاب ومقالة ورسالة منها المطبوع ومنها المخطوط ومنها المفقود ، والمفقود منها أكثر من المطبوع ، وهى تتناول موضوعات مختلفة كالتصوف والعقائد والفقه والأصول والفلسفة والمنطق والأخلاق وغيرها[٣] .

ولذلك يصفه ابن كثير بأنه كان من أذكياء العالم ، ويستدل بهذا الوصف الذى أطلقه عليه ببراعته فى صنوف العلوم والفلسفة ومصنفاته العديدة التى أدهشت بكثرتها كل من تصدى بالبحث للإنتاج الفكرى لهذا الإمام[٤] .

ولقد ألف الإمام الغزالى العشرات من الكتب المفيدة من أهمها " إحياء علوم الدين " وبه لقب الغزالى حجة الإسلام بحق ، فإن هذا الكتاب أحسن ما وضع لتأييد أصول الدين وبيان حكم العبادات والمعاملات ، هو فضلاً عن ذلك مصوغ فى قالب من الحكمة العالية لا بدانيه فيها كتاب سواه ، فهو من الآثار الإسلامية الضخمة ، هدى الله به إلى حكمة الدين أرواحاً لا تحصى كما يقول الأستاذ محمد فريد وجدى[٥] .

---

(١) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى ج١ ص ٥ .

(٢) الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه د / يوسف القرضاوى ص ٩ .

(٣) مباحث فى التصوف الإسلامى د / عابد منصور عابد ص ٢٠٢ .

(٤) ابن تيمية والتصوف د / مصطفى حلمى ص ٢٢١ .

(٥) مكاشفة القلوب – الإمام الغزالى ص ٥ .

ونحن إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالى سواء منها ما ألفه قبل فترة تصوفه وما ألف فى أثنائها فإننا نجد أن أهمها فى نظر الباحث الذى يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة .

وهى فضلاً عن ذلك تعتبر فى نظرنا أهم كتبه على الإطلاق ، ولو لم يؤلف الإمام الغزالى غيرها لبقى هو الغزالى العملاق الصوفى الفيلسوف بطابعه وسماته وشخصيته لا تنقص شيئا ولكنه لو لم يؤلفها لما كان هو الإمام الغزالى صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ – أما أحدها – فهو كتاب " المنقذ من الضلال " .

٢ – وأما ثانيهما – فهو كتاب " تهافت الفلاسفة " .

٣ – وأما ثالثهما – فهو كتاب " إحياء علوم الدين "[1] .

ولقد كتب الإمام الغزالى كتب كثيرة لدرجة أنها – كما يقول بعض المؤرخين قسمت بعدد الأيام التى عاشها ونذكر فيما يلى بعضا منها :

١ – التعليقة فى فروع المذهب .

٢ – المنخول فى أصول الفقه .

٣ – البسيط فى فروع المذهب .

٤ – الوسيط ملخص البسيط .

٥ – الوجيز .

٦ – خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر (فى الفقه الشافعى) .

٧ – المنتحل فى علم الجدل .

٨ – المآخذ فى الأخلاقيات .

٩ – المبادئ والغايات – فى أصول الفقه .

١٠ – شفاء الغليل فى القياس والتعليل .

١١ – فتوى لابن ناشفين سنة ٤٨٤هـ .

١٢ – غاية الغور فى دراية الدور (فى مسألة السريجية ومسائل الطلاق) .

١٣ – مقاصد الفلاسفة (بيان مبادئ الفلاسفة) .

١٤ – تهافت الفلاسفة – فى الرد على الفلاسفة .

١٥ – معيار العلم ومعيار العقول .

١٦ – محك النظر فى المنطق .

١٧ – ميزان العمل سنة ٤٨٧ .

١٨ – المستظهرى وهو رد على الباطنية .

١٩ – قواصم الباطنية .

٢٠ – الاقتصاد فى الاعتقاد .

٢١ – الرسالة القدسية فى العقائد .

٢٢ – المعارف العقلية والأسرار الإلهية .

٢٣ – حجة الحق – وهى فى بيان فساد مذهب الباطنية .

٢٤ – الفتوى اليزيدية – وهى فى حكم من كفر يزيد بن معاوية .

---

(١) المنقذ من الضلال – الإمام الغزالى ص ٣٨ .

٢٥ – إحياء علوم الدين .
٢٦ – كتاب فى مسألة – كل مجتهد مصيب .
٢٧ – جواب الغزالى على مؤيد الملك بشأن دعوته للتدريس فى نظامية بغداد سنة ٤٩٤هـ
٢٨ – معضل الخلاف – وهو ردود على الباطنية .
٢٩ – المسائل الأربع التى سألها الباطنية بهمذان .
٣٠ – المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .
٣١ – رسالة فى رجوع أسماء الله إلى ذات واحدة على رأى المعتزلة والفلاسفة .
٣٢ – بداية الهداية .
٣٣ – الوجيز فى الفقه .
٣٤ – جواهر القرآن وأصناف الجواهر والنفائس والدرر القرآنية .
٣٥ – الأربعين فى أصول الدين .
٣٦ – المظنون به على غير أهله .
٣٧ – المظنون الصغير – وبه إشارات وتلويحات لا يعرفها إلا أهل العلم .
٣٨ – كتاب الدرج المرقوم بالجداول (وهو مذكور فى المنقذ وجعله لغزالى من جملة ما كتبه فى الرد على الباطنية أو ضد الباطنية .
٣٩ – القسطاس المستقيم – وفيه الموازين المنطقية .
٤٠ – فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة رد فيه على الأشاعرة .
٤١ – القانون الكلى فى التأويل .
٤٢ – كيمياء السعادة .
٤٣ – أيها الولد – فى الأخلاق – والمعاملات .
٤٤ – نصيحة الملوك (نصائح لمحمد بن مالك شاه) .
٤٥ – زاد أخرت فارس .
٤٦ – رسالة إلى أبى الفتح أحمد بن سلامة بالموصل .
٤٧ – الرسالة اللدنية .
٤٨ – رسالة إلى أهل عصره .
٤٩ – مشكاة الأنوار .
٥٠ – تفسير ياقوت التأويل .
٥١ – الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين .
٥٢ – تلبيس إبليس – وهو غير تلبيس ابن الجوزى .
٥٣ – المنقذ من الضلال .
٥٤ – غور الدور فى المسألة السريجية – رجع فيه عن مصنفه – غاية العور فى دراية الدور .
٥٥ – المستصفى فى علم الأصول .
٥٦ – الإملاء على الأحياء .
٥٧ – الدور الفاخرة فى كشف علوم الآخرة .
٥٨ – منهاج العابدين – زهد – أخلاق – عبادات .
٥٩ – إلجام العوام عن علم الكلام .
٦٠ – الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل .

وغير هذه المؤلفات ذكرها غير واحد من العلماء مثل د / عبد الرحمن بدوى مثل تهذيب الأصول وحقيقة القولين . الذى يدافع فيه عن الشافعى — والرد على الباطنية ، والصراط المستقيم ، ورسالة الطير وروضة الطالبين ، ومنهاج العارفين ، ومكاشفة القلوب ، وجامع الحقائق بتجريد العلائق وغير ذلك[١] .

وفاة الإمام الغزالى :

كانت وفاة الإمام الغزالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، وهذا التاريخ يوافق الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ألف ومائة واحدى عشرة من الميلاد ، ولقد حدثنا شقيقه أحمد الغزالى عن يوم وفاته فقال كما ذكره ابن الجوزى فى كتابه الثبات عند المسلمات قال لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخى أبو حامد فصلى وقال على بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الأسفار ودفن فى ظاهر الطايران — وهى قلعة فى خارج المدينة طوس — رحمه الله رحمة واسعة ورضى الله عنه ونفعنا بعلمه[٢] .

منهج الإمام الغزالى فى التصوف الإسلامى :

قبل أن نتعرض لمنهج الإمام الغزالى فى التصوف لزاما علينا أن نذكر آراءه فى أصحاب المذاهب المعاصرة له وهم المتكلمون والفلاسفة والباطنية أما المتكلمون — وإن كانت غاية علمهم هى فظ العقيدة من تشويش أهل البدع إلا أن أدلتهم كانت فى نظر الغزالى ضعيفة ، كما أن آراءهم كانت عرضة لأن يعتريها لشك .

وأما الفلاسفة — فإن الغزالى لا يجحد ما لفلسفتهم من فضل فى تثقيف العقول لاسيما القسمان الرياضى والطبيعى منها ، ولكنه أنكر من الطبيعيات ما فيها من مسائل مخالفة للدين ، فالدهريون — هم الذين أنكروا الصانع سبحانه وتعالى وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً .

والطبيعيون — هم الذين ذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود وأنكروا الآخرة والثوب والعقاب ، والإلهيون هم الذين قالوا بقدم العالم ، وأن الله لا يعلم الكليات ، فلا يعنى بالجزئيات ، وأن الأجساد لا تبعث وإنما الأرواح وحدها هى التى لا يجوز عليها الفناء ، كل أولئك من الفلاسفة وكلهم فى نظر الإمام الغزالى كفرة أو زنادقة .

وأما الباطنية — وهم الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم المخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم ، وهو المعلم عندهم فقد انتقد الغزالى طريقتهم وبين أوجه الفساد فيها[٣] .

وبعد أن فحص الغزالى مذاهب المتكلمين والفلاسفة والباطنية انتهى إلى إيثار طريق التصوف ، واعتبر الصوفية وحدهم أرباب لحق ويصف الغزالى طريقة الصوفية بأنها تتم بعلم وعمل ، وحاصل علمهم التخلق ، وكان طلبه لعلم الصوفية من كتبهم أيسر عليه بكثير من العمل ثم ظهر له بعد ذلك أن أخص خواص الصوفية ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبديل الصفات .

فالتصوف فى رأيه إذن تجربة ومعاناة حقيقية ، ويضرب الغزالى لذلك مثالاً قائلاً ، فكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون الإنسان صحيحاً وشبعان وبين أن يعرف حد السكر وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر ، والطبيب فى حالة المرض يعرف أحد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة[٤] .

---

(١) مؤلفات الغزالى د / عبد الرحمن بدوى نقلاً من كتاب الفلسفة الإسلامية فى المشرق د / سيد حسن مبارك ص ٢٢٣ إلى ص ٢٢٨ .

(٢) حجة الإسلام — أبو حامد الغزالى د / حمزة النشرتى ص ١٥٤ .

(٣) الحياة الروحية فى الإسلام د / مصطفى حلمى ص ١٥٥ .

(٤) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٦٧ .

من هنا ينتهى الإمام الغزالى – إلى أن سيرة الصوفية هى أحسن السير ، وطريقتهم هى أصوب الطرق ، وأخلاقهم هى أزكى الأخلاق إذ جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرها وباطنها مقتبسة من نور مشكاة النبوة الذى ليس وراءه على وجه الأرض نور يستضاء به[١] .

ولذلك دخل الإمام الغزالى إلى التصوف دخول المحب العاشق لا دخول الفاحص الناقد ، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التى نظر بها علوم الفلاسفة والمتكلمين والباطنية ، بل بعين الرضا والحب ، والحب يعمى ويصم ، وسر هذا أنه تعامل مع التصوف بقلبه قبل عقله ، وبذوقه قبل فقهه ، وهذا ما جعله يقبل أشياء مما أخذ على القوم فى الفكر ، وفى السلوك ، دون أن يعرضها على قانون الفقه أو منطق العقل ، ومن أجل هذا أنكر عليه العلامة ابن الجوزى وغيره من الناقدين قبوله لكثير من أفكار الصوفية وأعمالهم وأحوالهم ، وهى مخالفة لقانون الشرع منحرفة عن الكتاب والسنة الصحيحة .

ولكن ابن الجوزى قد شدد التكبر على أبى حامد الغزالى فى حكاية هذا وأمثاله واستحسانه وتبريره[٢] . ومع هذا كله لا ينكر منصف دارس للغزالى ولكتبه ولا حياته خاصة أنه لم يقبل التصوف بعجزه وبجره بل رفض فى حزم تصوف أهل الحلول والاتحاد كالحلاج وأشباهه ، ولم يقبل إلا التصوف السنى القائم على الكتاب والسنة .

واجتهد أن يرد كل فكرة أو خلق أو سلوك أو حال كما يقول به المتصوفة إلى أصول إسلامية ، وأن ستدل عليها بالقرآن والحديث والأثر ، كما حاول أن يخفف من غلواء القوم فى فهمهم للتوكل والزهد ونحوهما وأن أصابه شئ من رذاذهم .

ومن أهم ما أبرزه الغزالى فى التصوف أنه نقله من مجرد الذوق والتحليق والسطح والتهويل إلى علم أخلاقى عملى يعالج أمراض القلوب وآفات النفوس ويزكيها بمكارم الأخلاق .

ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالى ثم كيف صار بعده عرف فضل الغزالى على التصوف وأهله وما ترك فيه من أثر واضح يشهد به المتخصصون فى علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلامية .

وفيما يلى سوف نعرض لأهم النظريان الصوفية التى ناقشها الإمام الغزالى من خلال منهجه فى التصوف الإسلامى وتشمل نظرية المعرفة ونظرية الكشف ونظرية الفناء ونظرية السعادة فنقول وبالله التوفيق .

---

(١) المنقذ من الضلال – الإمام الغزالى ص ١٤٣ .

(٢) الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه د / يوسف القرضاوى ص ١٣٧ .

المبحث الثانى

نظرية المعرفة عند الإمام الغزالى

مفهوم المعرفة عند الإمام الغزالى :

علم الله تعالى آدم الأسماء كلها ، ثم أمر الملائكة بالسجود له فالمعرفة هى جوهر الإنسان وحقيقته ومن أجل هذه القدرة على المعرفة سخر الله كثيراً من مخلوقاته لخدمة الإنسان وجعله خليفته على الأرض ولهذا يقول حجة الإسلام خاصية الإنسان العلم والحكمة فبدون المعرفة لا يستطيع الإنسان أن يميز بين الخير والشر ومسئولية الإنسان متوقفة على قدرته على المعرفة وحريته كذلك ، فالإنسان حر بقدر ما يعرف ، وتاريخ الإنسان عبر العصور يمثل محاولات متواصلة للتحرر من قيود الجهل التى تقيد حرية الإنسان فى هذا الوجود ، ومن هنا فرغبة الإنسان فى المعرفة تعتبر من أنبل وأشرف الرغبات ، لأنها تعبر عن حقيقة الإنسان المتعطشة دائما للعلم والمعرفة .

ويقول الإمام الغزالى : المعرفة فى اللغة هى العلم الذى لا يقبل الشك[١] .

مفهوم المعرفة عند الصوفية :

والمعرفة عند الصوفية هى صفة من عرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ثم صدق بالله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله بجميل إقباله ، وصدق إليه فى جميع أحواله ، وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره[٢] .

أقسام المعرفة عند الصوفية :

المعرفة عند الصوفية معرفتان :

١ — معرفة حق .

٢ — معرفة حقيقة .

فمعرفة الحق — إثبات وحدانية الله تعالى على ما أبرز من الصفات ، ومعرفة الحقيقة — لا سبيل إليها لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية عن الإحاطة[٣] . قال تعالى { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا }[٤] .

الفرق بين المعرفة عند الغزالى وعند الصوفية :

ويتميز الغزالى عمن سبقه من الصوفية بأنه جعل التصوف طريقاً إلى المعرفة بالله واضح المعالم والحدود وهو قد أفاض فى مصنفاته المختلفة فى التصوف وأبرزها إحياء علوم الدين فى الكلام عن المعرفة الصوفية ، من حيث أداتها ومنهجها وموضوعها وغايتها مقارناً بينها وبين معرفة الله عند الصوفية من النظار المعتمدين على مناهج العقل والغزالى فى هذا كله مستخدم ثقافاته المنوعة ومن هنا يمكن اعتبار نظريته فى المعرفة نظرية متكاملة إذ قورنت بما خلفه السابقون عليه فيها من أقوال متفرقة ، كما اعتبرت هذه النظرية تطوراً ملحوظاً فى التصوف الإسلامى[٥] .

---

(١) الإنسان فى فلسفة الغزالى وتصوفه د / زكى محمود ص ٦٧ .

(٢) الرسالة القشيرية — الإمام القشيرى ص ٤١٧ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف — الإمام الكلاباذى ص ١٠١ .

(٤) سورة طه من الآية رقم : ١١٠ .

(٥) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ٦٥٩ .

الفرق بين المعرفة عند الصوفية وعند المتكلمين :

يرى الإمام الغزالى أن معرفة الصوفية تختلف عن معرفة النظار والمتكلمين الذين يعولون على فهمهم للمعرفة على العقل فقط .

فإذا كان طريق الصوفية فى جانب العلم والمعرفة يتم بتقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال على الله بكل الهمة وعند ذلك تكشف الحقائق وتظهر أسرار الملكوت وما على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار النية على الإرادة لصادقة والتعطش التام والترصد بالانتظار لما يفتحه الله على العبد من الرحمة[١] .

وإذا كان طريق الصوفية يرد فى المقام الأول إلى تطهير محض من جانب العبد وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار ، فإن طريق النظار والمتكلمين يختلف عن ذلك ، لأنهم يفهمون من المعرفة تحصيل العلوم ودراستها والبحث فيما صنفه المصنفون ، تطلعاً إلى كشف حقائق الأمور فطريقهم فى المعرفة طريق عقلى ، ومنهجهم استدلالى يعتمد على مقدمات وأقيسة تستخلص منها النتائج ، وهذا لا يفيد فى البحث عن المعرفة .

من أجل ذلك فإن النظار — فيما يقول الغزالى — لم ينكروا وجود هذا الطريق (الذوقى) وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستنبطوا ثمرته واستبعد واستجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمعتذر وإن حصل فى حال فثباته العبد فيه[٢] .

غير أن العقل عند الصوفية يعجز تماماً عن إدراك المعارف الإلهية ، كما يعجز عن البحث عن الماورائيات ولذلك أجمع الصوفية على أن الدليل على الله هو الله وحده ، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل فى حاجته إلى الدليل ، لأنه محدث ، والمحدث لا يدل إلا على مثله ، وقال رجل للثورى ما الدليل على الله قال الله قال فما العقل ؟ قال العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ، وقال ابن عطاء — العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية وقال غيره — العقل يحول حول الكون فإذا نظر فى الكون ذاب[٣] .

منهج الإمام الغزالى فى الوصول إلى المعرفة :

إن الإمام الغزالى لم يألوا جهداً فى طلب المعرفة اليقينية ، فخاض فى سبيل ذلك ما يقرب من شهرين ، وهى مرحلة شكه الضعيف التى تدرج فيها من المحسوس إلى المعقول ، وأسلمه الشك الضعيف إلى شك أكثر عنفاً عايش فيه قرابة ستة شهور ن ولم يخرجه عن هذا الشك سوى اللجوء إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجاباه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبه بالإعراض عن الدنيا وانكشف له خلال ذلك الغطاء ، غطاء المعرفة اليقينية[٤] .

وفى سبيل المعرفة قضى الغزالى عشر سنين فى العزلة والتفرد وعاش حياة التأمل والخلوة ، فعرف أثناء هذه الفترة المعرفة اليقينية التى لا يتطرق إليها شك ، ولا يشوبها انحراف .

كل ذلك اكسب الغزالى إلى دراية عرك خلالها المذاهب والأفكار وتقلب بين تيارات من الشك لم يمر بها أحد من الصوفية ، فدخل الطريق الصوفى وهو فى مقدمة الراسخين الذين خاضوا تجارب المعرفة بالعقل تارة ، وبالذوق تارة أخرى ، واتصل مجال النظر لديهم بمجال التأله والاستبصار[٤] .

---

(١) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦٥٩ .

(٢) إحياء علوم الدين — الإمام الغزالى ج٣ ص ٣٢ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف — الإمام الكلاباذى ص ٣٧ .

(٤) المنقذ من الضلال — الإمام الغزالى ص ١٤١ .

(٤) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦١١ .

فالجديد الذى أضافه الغزالى وتميز به عن غيره من الصوفية هو أنه أبان قصور العقل الفلسفى عن المعرفة الإلهية غير المتناهية ، وهو فى ذلك عقل يختلف عن العقل الشرعى الذى يفهم حدوده ويقر بعجزه ويعرف بإمكاناته فى التسليم والإذعان والتوافر الدائم على خدمة الاستدلال فى دوائره المحدودة .

أما ما وراء الطبيعة ، فالبحث فيه من قيل العقل المحدود عبث وضلال لا يقدر عليه إلا الكشف الصوفى .

ومن هنا يكون الإمام الغزالى قد وفق توفيقاً معتدلاً بين المذاهب العقلية وحقائق الكشف والإلهام ، فهو من جانب لم ينكر على العقل قدرته فى تحصيل المعرفة فيما يتعلق بدوائره واختصاصاته ، بدليل أننا وجدناه يدخل العقل فى تنظيم الكشف ، ولكنه ينكر عليه أن يهيم فى بيداء الغيب دون عدد من الهداية الإلهية ، وهنا يكون المنع والعقال عدم البحث فيما وراء الطبيعة[١] .

أداة المعرفة عند الإمام الغزالى :

يرى الإمام الغزالى أن أداة المعرفة الصوفية هى القلب ، وليست الحواس ولا العقل ، والقلب عنده ليس تلك اللحمانية المعروفة المودعة من الجانب الأيسر من صدر الإنسان وإنما هو اللطيفة الربانية الروحانية التى هى حقيقة الإنسان ، وقد يكون لها بالقلب الجسمانى تعلق إلا أن عقول الناس تحيرت فى إدراك وجه العلاقة بينهما .

وهو يرى أن القلب كالمرآة ، والعلم هو انطباع صور الحقائق فى هذه المرآة ، فإذا كانت مرآة القلب غير مجلوه فإنها لا تستطيع أن تعكس حقائق العلوم ، والذى يجعل مرآة القلب تصدأ فى رأى الإمام الغزالى هو شهوات البدن ، والإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يجلو القلب ويصفيه[٢] .

ويسوق لنا الإمام الغزالى مثالاً محسوساً بين فيه كيف يكون القلب أداة المعرفة الصوفية فيقول — لو فرضنا حوضاً محفوراً فى الأرض احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بالنهار تفتح به ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء اصفى وادوم ، ويكون أكثر وأغذر فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء ن ويكون الحواس مثل الأنهار وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى تمتلئ علماً ، ويمكن أن نسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر .

ويعمد إلى عمق القلب بتطهره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله[٣] . فالقلب الصادق فى التوجه إلى الله هو القلب الذى يتخلص من أمهات خبائث القلب وهى الصفات المذمومة كالحسد والرياء والعجب وهذه الخصال تعو ق صاحبها عن طلب العلم والمعرفة اليقينية ، فلا تصفو نفسه ، ولا يخلو قلبه من صنوف المفاخرة والرياء لاسيما أنه يدعى العلم ويزيد أن يصلح من المتعلمين ، فعلى القلب إذن أن يتخلص من هذه الآفات ، ويعمر باطنه بالتقوى فإذا عمر باطن قلبه بالتقوى فسوف يرى من الهدايا ما لا يخطر على بال ، ويكون العلم فى ذلك مصحوبه ودليله يمضى به وهو موقن بفوائده وأهميته[٤] .

من أجل ذلك يحرص الإمام الغزالى حرصاً شديداً على الاهتمام بالقلب باعتباره أداة المعرفة ووسيلتها ، فهو من المبادئ الأولية اليقينية التى تنهض بالعبد لأن يكون من المقربين إلى الله طالما فهم أمور الدين بالعلم لا بالتقليد ، وطبق العلم على العمل ، واتاحت له فرصة النظر إلى الفيض الإلهى من كشف ومشاهدة[٥] .

---

(١) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦١١ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٢ .

(٣) إحياء علوم الدين — الإمام الغزالى ج١ ص ٣٣ .

(٤) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ١٤ .

(٥) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦١٦ .

الموانع التى تحول بين القلب والعلم عند الإمام الغزالى :

يرى الإمام الغزالى أن هذه لموانع خمسة أمور :

الأولى : نقصان فى ذاته كقلب اصلبى فإنه لا تتجلى له المعلومات لنقصانه .

الثانية : كدوره المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات ، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه ، فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه ، ولذلك قال – يقول المولى عز وجل : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }[١] ويقول الرسول ﷺ فى الحديث لنبوى الشريف من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم[٢] .

الثالثة : أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة ، فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب .

الرابعة : الحجاب – فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عن باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد وحسن الظن .

الخامسة : الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب فإن طلب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها عثر على جهة المطلوب[٣] .

هذه هى أهم الأسباب الرئيسية التى تحول بين القلب وبين معرفة حقائق الأشياء فإذا ارتفعت هذه الأسباب أدرك القلب الأمور كلها فالقلب بهذه المعانى مستقر المعرفة فى الإنسان .

لكن ما هى وسيلة القلب التى يمكنه بها أن يكون أهلاً لهذه المعرفة ؟[٤] .

يقول الإمام الغزالى – إن الوسيلة هى المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة واشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة[٥] .

فتصفية الروح ليست غرضاً من أغراض الصوفية إلا لأنها تمهد الاتصال بالله ، ونتلقى المعرفة عنه ولا ريب أن معرفة تأتى عن طريق الإلهام هى معرفة لا يتطرق إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج المنطق وأنت تحاول عبثاً إذا أردت أن تبعث الشك فى نفس الصوفى أو أن تحوله عن رأيه ، إذ كيف يحيد عن فكرة يعتقد أنه تلقاها عن الملأ الأعلى فى فترة صفت فيها روحه وتطهرت ، وكيف يكون على باطل وهو يعمل وفق إرادة وتعاليم عليا سامية[٦] .

وهنا يصور لنا الإمام الغزالى منهجه فى الوصول إلى المعرفة الصوفية فيقول أن حقيقة ما تنطوى عليه النفس البشرية من الصراع بين الخير والشر فتعاملها بمنهج يتوافق وطبيعتها يقتلع منها الشرور ويحل محلها

---

(١) سورة العنكبوت من الآية رقم : ٦٩ .

(٢) الحديث – عن أنس بن مالك رضى الله عنه – حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ج١٠ ص ١٥ طبعة دار الفكر .

(٣) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى ج٣ ص ٢١ وما بعدها .

(٤) حولية كلية أصول الدين بأسيوط العدد ١٦ لسنة ١٩٩٨ ص ٦٥ بحث تحت عنوان " المعرفة الصوفية عند الغزالى " .

(٥) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى ج٣ ص ٣٠ وما بعدها .

(٦) أبحاث فى التصوف الإسلامى د / عبد الحليم محمود ص ٣٣٧ ضمن كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالى .

الفضائل فى ازدواجية راقية تبدأ بالتخلى عن الرذائل وتنتهى بالتجلى بالفضائل أملاً فى تجلى مبدع الكائنات بالأنوار فهى تجلى وتحلى وتجلى .

تخلى عن الرذائل — وتحلى بالفضائل — وتجلى من الله بالأنوار[١] .

موضوع المعرفة عند الإمام الغزالى :

يرى الإمام الغزالى أن موضوع المعرفة الصوفية هو ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وهى أسمى موضوع لأسمى معرفة فيقول وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الإنسان وفيه كمال سعادته ، وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال على أن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس فى الوجود سوى الله تعالى وصفاته ، فما يتجلى من ذلك القلب هو الجنة بعينها عند قوم ، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق[٢] .

ويرى الإمام الغزالى أن معرفة الله فطرية عند كل إنسان تماماً مثل الحقائق الرياضية ، وفوق ذلك فإنها تأخذ مكاناً خاصاً بين المعارف الأولية ، لأنها أول كل المعارف وشرط لها ، فلو عرف الإنسان كل شئ ولم يعرف الله عز وجل لم يعرف شيئاً ، فالمعرفة الحقيقية للأشياء تبدأ بمعرفة الله ، لأنه الموجود الحق ، فالموجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى ، فإن كان شئ سواه إذا اعتبر ذلك من حيث ذاته فهو عدم محض ، وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى الله الوجود من الأول الحق رؤى موجوداً لا فى ذاته لكن من الوجه الذى يلى موجده[٣] .

وفى سبيل توضيح قضية معرفة الله نجد الإمام الغزالى يعقد مقارنة بين النور الإلهى والظاهر البصرى فالنور الظاهر يتحد بطريقة قوية من كل الألوان ولهذا فإنه فى بادئ الأمر لا يرى بل يظن أنه ليس مع الألوان غيرها رغم أنه أظهر الأشياء فإذا غربت الشمس واختفى الضوء عرف أن النور يعنى وراء الألوان يدرك مع الألوان حتى أنه لشدة انجلائه لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى وقد يكون الظهور سبب الخفاء ، والشئ إذا جاور حده انعكس إلى ضده ، وكما أن كل شئ يصبح للإنسان منظور عن طريق النور .

فإن الإنسان يمكنه بعقله أن يفهم كل الأشياء عن طريق الله ، لأن الله مع كل شئ فى كل لحظة وعن طريقه يظهر كل شئ .

ولكن وجه الشبه بين النور الإلهى والنور المنظور ينتهى عند هذا الحد ، لأنه فى حين أن النور المنظور يختفى بغروب الشمس ، ولذلك يمكن أن يعرف وجوده عن طريق غيابه ، فإنه لا يمكن للنور الإلهى أن يختفى فإنه مستمر دائماً مع كل شئ ، ولو قدر له أن يختفى فإنه لا يبقى هناك شئ إطلاقاً ولهذا فإن طريقة المعرفة المعتادة وهى طريقة التفرقة أو معرفة الأشياء بالأضداد ، يمكن تطبيقها فى حالة معرفة الله .

فلو كان النور الإلهى مماثلاً للنور الظاهر فى إمكان اختفائه لتهدمت السموات والأرض[٤] .

الغاية من المعرفة عند الإمام الغزالى :

وغايات المعرفة عند الإمام الغزالى هى التخلق ، والحب لله والفناء فيه والسعادة . ذلك أن المعرفة عنده وعند من تقدمه من الصوفية تهدف إلى غاية أخلاقية ، لأنها متوقفة على طهارة القلب ونقائه ، والمعرفة علامة الهداية ، وكلما زادت زاد التخلق والصفاء[٥] .

---

(١) التصوف الإسلامى نشأته وأطواره د / جميل محمد أبو العلا ص ٨٠ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٥ .

(٣) المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت د / محمود حمدى زقزوق ص ١١٠ .

(٤) المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت د / محمود حمدى زقزوق ص ١١١ .

(٥) مدل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٥ وما بعدها .

وجملة القول – أن المعرفة اليقينية عند الإمام الغزالى ليست معرفة العوام ، ولا معرفة المتكلمين والفلاسفة وإنما هى معرفة الصوفية التى تبنى على أساس من الذوق الروحى والكشف الإلهى ، وهذه المعرفة تقع فى قلوب خواص الأولياء بلا واسطة من حضرة الحق ، مثلها فى هذا كمثل علم النبوة الذى أشار إليه قوله تعالى { وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا }[1] غير أنها تختلف عن هذا العلم فى أنها إلهام ونفث فى الروع لا يدرى العبد كيف جعل له ، ولا من أين جاء إليه ، فى حين أن معرفة الأنبياء وهى تحصل للنبى عن طريق الملك ، ومع ذلك فإن كلاً من النبى والولى موقن بأن العلم فى الحالين إنما يأتى من الله تعالى[2] .

تعقيب على نظرية المعرفة عند الإمام الغزالى :

أن المعرفة الصوفية تقلب مبدأ الاستقلال العقلى الذى يقوم على الاستدلال بالكون على المكون من خلال الاتصال الصوفى المباشر بالحقيقة الوجودية المطلقة .

فالصوفى هو من اهتدى إلى الكون ثم عرف الكون بالمكون لذا نجد الصوفى يتجاوز مناهج النقل والعقل معاً إذ عندهم الناس أما أصحاب النقل والأشهر أما أرباب العقل والفكر والمتصوفة ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذى للناس غيب فهو لهم ظهور فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال[3] .

وتجدر الإشارة إلى أن أعلام الصوفية لم ينكروا أن يكون العقل أداة لمعرفة العالم الخارجى المحسوس ، ولكنهم أكدوا أنه محدود بمعرفة عالم الحسن ، وأن الصوفى فى حاجة للمعارف العقلية لتشكيل الإطار الخارجى للمعرفة الصوفية ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب ، وإن كان محتاجا إليها ، وقد أدركوا أن حججهم لا تجدى كثيراً مع من لا يسلم بغير وجود العالم المحسوس .

لذا نجد السراج لا يرفض الحجج العقلية ضد هؤلاء إذ يقول علم القياس والنظر وعلم الجد وإثبات الحجة على أهل البدع والضلالة .

ويصف الغزالى المتكلمين بأنهم حراس هذا القشر (كلمة التوحيد) عن تشويش المبتدعة[4] .

على آية حال فقد انتهى الصوفية شأنهم فى ذلك شأن رواد التجربة الروحية فى كل مكان وزمان إلى القول بأن البصيرة الكاشفة بوسعها أن تدرك وفى لمحة خاطفة ما يعجز العقل عن إدراكه ، وهذا يصبح العقل بمعناه الإيجابى عندهم أداة لتثبت الصوفى فى طريقه وتجربته وليس للنظر والاستدلال على حد قولهم ومنهجهم[5] .

---

(١) سورة الكهف من الآية رقم : ٦٥ .

(٢) الحياة الروحية فى الإسلام د / مصطفى حلمى ص ١٥٩ .

(٣) المعرفة الصوفية د / نـ حسين ص ١٣٧ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٥) نفس المصدر السابق ص ١٤٤ .

المبحث الثالث

نظرية الكشف عند الإمام الغزالى

مفهوم الكشف عند الصوفية :

إن المعرفة الحقيقية فى نظر الصوفية ونظر الإمام الغزالى ، هى مصدر الكشف والرؤية والمشاهدة ، ولا يكون الكشف عيانا بجارحة العين ، ولكنه يتم بسر القلب .

يقول الإمام الغزالى ما علاقة المعرفة ؟

فقال : حياة القلب مع الله تعالى .

أوحى الله إلى سيدنا داود عليه السلام وقال له أتدرى ما معرفتى ؟ قال لا .

قال : حياة القلب فى مشاهدتى .

فإن قيل فى أى مقام تصح المعرفة الحقيقية ، فقال فى مقام الرؤية والمشاهدة بسر القلب ، وإنما يرى ليعرف ، لأن المعرفة الحقيقة فى باطن الرية ، فيرفع الله تعالى بعض الحجب فيريهم نور ذاته وصفاته عز وجل من وراء الحجاب فيعرفوه تعالى ، ولا يرفع الحجب بالكلية لكى لا يحترف الرائى[١] .

والمكاشفة هى حضور المريد بنعت البيان غير مفتقر فى هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل ولا سمتجير من دواعى الريب ولا محجوب من نعت الغيب[٢] .

والمنهج الذى اصطنعه الصوفية ويعرف عندهم بالكشف منهج ذوقى خاص ، وهو إدراك وجدانى مباشر يختلف عن الإدراك الحسى المباشر ، والإدراك العقلى المباشر والحدس .

ويقابل الكشف المباشر ذلك عند الإمام الغزالى ، الاستدلال العقلى الذى ينتقل فيه الزهن من معنى إلى معنى أو من مقدمات إلى نتائج عند المتكلمين والفلاسفة .

فالمعرفة قد تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ولبعضهم بتعلم واكتساب . فالصوفية انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتاب والكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهى طريق الكشف والإلهام[٣] .

مفهوم الكشف عند الإمام الغزالى :

يصف الإمام الغزالى الكشف أحياناً بالنور على ما جاء فى وصفه لبيان كيفية وصوله إلى اليقين بعد الشك ، ولم يكن بذلك تنظيم دليل وترتيب كلام (يشير إلى الاستدلال العقلى) بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكبر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موصوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة[٤] .

---

(١) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦١٨ .

(٢) الرسالة القشيرية – الإمام القشيرى ص ١٤٨ .

(٣) مدل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٣ .

(٤) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٤ .

ويقول حجة الإسلام : نعنى بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق فى هذه الأمور إيضاحاً يجرى مجرى البيان الذى لا يشك فيه ، وهذا ممكن فى جوهر الإنسان ، لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ، وإنما نعنى بعلم طريق الآخرة ، العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث ، التى هى حجاب عند الله سبحانه وتعالى ، وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى جميع أحوالهم[١] .

والحقيقة إن الإنسان يمتلك هذه الإمكانيات الهائلة للوصول إلى آفاق المعرفة الذوقية المباشرة ، وهذا لا يتعارض مع الاختلاف الكبير بين البشر فى القدرة على الذوق ، حتى على مستوى الإحساس الوجدانى بالفنون والآداب .

ولذا يقول الإمام الغزالى – وأما العاطل عن خاصية الذوق فيشارك فى سماع الصوت ، وتضعف فيه هذه الآثار وهو يتعجب من صاحب الوجد والشفى ، ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدر عليه[٢] .

درجات العارفين عند الإمام الغزالى :

يعتبر الكشف عن الإمام الغزالى أرقى مناهج المعرفة وهو يقسم العارفين من حيث معرفتهم ومناهجهم فيها إلى ثلاثة درجات رئيسية :

الدرجة الأولى : الإنسان العامى – ومنهجه فى المعرفة التقليد المحض .

الدرجة الثانية : الإنسان المتكلم – ومنهجه فى المعرفة الاستدلال العقلى ، ودرجته فى رأى الإمام الغزالى قريبة من درجة العامى .

الدرجة الثالثة : العارف الصوفى – ومنهجه فى المعرفة المشاهدة بنور اليقين .

ويضرب لنا الإمام الغزالى مثالاً لمناهج هؤلاء قائلاً ، إن العامى إذا أخبره من هو أهل الثقة بأن رجلاً فى الدار صدقه ولم يخطر بباله خلاف ذلك .

والمتكلم مثله كمن سمع كلام رجل فى الدار فاستدل بذلك على وجوده فيها ، والصوفى مثله كمن دخل النار فشاهد الرجل فيها ، وهذه المشاهدة هى المعرفة الحقيقية.

وعلى ذلك فإيمان الصوفية ينطوى فيه إيمان العوام ، والمتكلمين . ثم يتميز الصوفية بعد ذلك بمزية استحالة الخطأ ، لأن مشاهدتهم توجب اليقين[٣] .

الأدلة على الكشف عند الإمام الغزالى :

يقول الإمام الغزالى أن الدليل على الكشف الذى لا يقدر على جحده أمران :

الأول : عجائب الرؤية الصادقة : فإنه ينكشف فيها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

الدليل الثانى : وهو إخبار سول الله ﷺ عن الغيب وأمور تحدث فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن الكريم .

وإذا جاز ذلك للنبى جاز لغيره ، إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق .

---

(١) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى ج١ ص ٣٩ .

(٢) الإنسان فى فلسفة الغزالى وتصوفه د / زكى محمود ص ١٠٣ .

(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٤ .

فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبياً بل يسمى ولياً[١] .

ولا يتبادر إلى الذهن من واقع هذين الأصلين أن الإمام الغزالى يساوى بين النبى والولى فى هذا الأمر ، لأن الإمام الغزالى يعلم تماماً الفرق بين رتبة النبى ورتبة الولى .

وفى معرض التفرقة بين الإلهام والتعليم وبين علوم الأنبياء إشارة ظاهرة بينة صريحة فقال أن الواقع من العلوم بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى قسمين :

الأول : ما لا يدرى العبد كيف حصل له ، ومن أين حصل .

والثانى : ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب والأول يسمى إلهاماً ونفثاً فى الروح ، والثانى يسمى وحياً وتختص به الأنبياء والأول تختص به الأولياء والأصفياء[٢] .

الكشف وسيلة من وسائل المعرفة الإنسانية :

يقول الإمام الغزالى – لابد من التأكيد على أن الكشف كوسيلة خاصة من وسائل المعرفة الإنسانية لا يجب النظر إليه باعتباره أمرا مخالفاً للعقل ، فبالرغم من ان الكشف يتجاوز حدود العقل بإدراكه أشياء يقصر العقل فيها .

إلا أنه لا يكشف مما يقضى العقل باستحالته والإمام الغزالى يضرب لنا مثالاً لذلك فيقول يجوز أن يكشف الولى بأن فلاناً سيموت غداً ولا يدرك ببضاعة العقل ، بل يقصر العقل عنه ، ولا يجوز أن يكشف بان الله غداً سيخلق مثل نفسه .

فإن ذلك يحيله العقل لا أنه يقصر عنه[٣] ، والفرق كبير جداً بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل .

وهكذا نرى أن المعرفة الذوقية تعضد القدرات المعرفية الأخرى للإنسان ولا تضعفها .

فالكشف تعميق لقدرات الإنسان المعرفية ، فإذا كانت قوانين العقل تعبيراً عن جانب من الإنسان يلتقى مع قوانين الطبيعة ، فالكشف تعبير عن جانب روحانى من الإنسان يلتقى مع ما وراء الطبيعة[٤] .

ولفهم هذه الحقيقة يقص علينا المولى سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، قصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح فى سورة الكهف لندرك أن درجات الترقى للإنسان بلا نهاية كما أن العطاء الإلهى بلا حدود – قال تعالى { مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا }[٥] .

وإذا كنا هنا فى عالم الحس والشهادة ، فهناك عالم آخر ، هو عالم الملكوت ، حيث يقول عنه الإمام الغزالى رحمه الله فى هذا العالم عجائب يستحقر بالإضافة إليها عالم الشهادة ، وأن من لم يسافر إلى هذا العالم وقعد به القصور فى حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة يعد محروماً من خاصية الإنسانية ، بل أضل من البهيمة إذ لم تسعد البهيمة بأجنحة الطيران إلى هذا العالم ، ولذلك قال المولى عز وجل : { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }[٦] .

---

(١) المنقذ من الضلال – الإمام الغزالى ص ٦٨ .

(٢) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦٢١ .

(٣) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى – الإمام الغزالى ص ١١٤ .

(٤) الإنسان فى فلسفة الغزالى وتصوفه د / زكى محمود ص ١٠٥ .

(٥) سورة فاطر آية رقم : ٢ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٩ .

وكما يقول الإمام الغزالى فهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتداء سفره إلى قرب الحضرة الربوبية فالكشف إدراك وجدانى مباشر يتجاوز حدود العقل ، أو كما يقال حجة الإسلام وراء العقل طوراً آخر تتفتح فيه عينا أخرى يبصر بها الغيث وما سيكون فى المستقبل ، وأمور أخرى العقل معزول عنها[١] .

فكيف يتعجب المتعجبون من قولنا لم يحصل أهل الأرض والسماء معرفة من الله تعالى إلا على الصفات والأسماء ؟ ونحن نقول لم يحصلوا من الجنة إلا على الأسماء والصفات ، وكذلك فى كل ما سمع الإنسان اسمه وصفته ، وما ذاقه وما أدركه ، وما انتهى إليه ، وما اتصف به فإن قلت فما نهاية معرفة العارفين بالله سبحانه وتعالى ؟ فنقول — نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفته بالحقيقة هى أنهم لا يعرفونه ، وأنهم لا يمكنهم البته معرفته ، فإنه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى ، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا كما ذكرنا .

فقد عرفوه إلى بلوغ المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من معرفته ، وهو الذى أشار إليه الصديق الأكبر حيث قال " العجز عن درك الإدراك إدراك " بل هو الذى عناه سيد البشر صلوات الله عليه وسلامه حيث قال " لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، ولم يرد أنه عرف نفسه ما لا يطاوعه لسانه فى العبادة عنه بل معناه إنى لا أحيط بمجامدك وصفات إلهيتك وإنما أنت المحيط بها وحدك[٢] .

لأن الله تعالى لا يحيط به الوصف ولا تدركه العقول البشرية قال تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٣] .

كيفية وصول الإنسان إلى الكشف عند الإمام الغزالى :

يتفاوت الخلق فى معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من معلومات الله تعالى وعجائب مقدوراته ، وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة والملك والملكوت .

فإذا قد عرفت كيف يتفاوت الخلق فى بحار معرفة الله تعالى وإن ذلك لا نهاية له ، عرفت أن من قال لا يعرف الله إلا الله فقد صدق فإنه ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله[٤] .

وهنا يبين لنا حجة الإسلام كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى الكشف بقوله فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعليم والدراسة والكتابة والكتب بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له[٥] .

الفرق بين العلم النظرى والعلم الكشفى عند الإمام الغزالى :

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسات كان ذلك حجابا له من مطالعة اللوح المحفوظ .

كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس ، لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس ، فإذن للقلب بايان باب مفتوح إلى عالم الملكوت — وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة .

---

(١) الإنسان فى فلسفة الغزالى وتصوفه د / زكى محمود ص ١٠٥ .

(٢) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى — الإمام الغزالى ص ٣٢ .

(٣) سورة الشورى من آية رقم : ١١ .

(٤) التصوف الإسلامى منابعه وأطواره د / محمد الصادق عرجون ص ١٢٦ .

(٥) الإنسان فى فلسفة الغزالى وتصوفه د / زكى محمود ص ١٠٨ .

وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكى عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك .

وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ واطلاع القلب فى النوم فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، أو كان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس ، وإنما ينفرد ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى[١] .

من هنا قرر الإمام الغزالى أن الذكر باب الكشف وهذا ما قصده الإمام الجنيد لما سألوه عن مصدر علمه فأجاب من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، واوماً إلى درجة فى داره ، وهذا ما دفع كثيراً من الباحثين ليقروا أن الذكر وسيلة لاستثارة حالة الوجد وهول الإشراق[٢] .

وذلك لأن الذكر تربية صوفية وذوقية ونفسية بالغاً لغة الفائدة لأنها التربية الروحية التى تقرب العبد من الله تعالى قرابة وذو محبة وتجعل قلبه مطمئنا دائما بذكر الله[٣] . قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }[٤].

ويرى الإمام الغزالى ، أن علم المكاشفة علم خفى لا يعلمه إلا أهل العلم بالله ، ولذلك فإن أصحابه يستخدمون رموزاً خاصة بهم ، ولا ينبغى التحدث فيه خارج نطاق أهله ، ويقول الإمام الغزالى ، وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شئ من ذلك لمن لم ينكشف له[٥] .

تعقيب على نظرية الكشف عند الإمام الغزالى :

إن التوحيد عند الإمام الغزالى وقف فى جوهره على علماء المكاشفة وما هو علم المكاشفة ؟ هو علم لا معرفة .

ولكن يقال أن سوء الخاتمة معد لمن ليس له منه نصيب .

ويقال أن ادنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليمه لأهله .

ويقال كذلك أن أقل عقوبة من ينكره إلا يذوق منه شيئاً .

وما هى غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات التامات وأنا لا أدرى سبب هذه الشهوة الغريبة التى تحمل علماء الدين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنه المؤمنون[٦] مع العلم بأن حضرة النبى ﷺ نهانا عن التفكير فى ذات الله سبحانه وتعالى ، بل إنه حذرنا من ذلك تحذيراً شديداً فقال فى الحديث النبوى الشريف " تفكروا فى مخلوقات الله عز وجل ولا تتفكروا فى ذاته فإنكم لن تقدروا قدرة "[٧] .

---

(١) المنقذ من الضلال – الإمام الغزالى ص ٦٩ وما بعدها .

(٢) المعرفة الصوفية د / ناجى حسين ص ١٥٧ .

(٣) التصوف السنى د / مجدى.إبراهيم ص ٦٠١ .

(٤) سورة الرعد الآيات رقم : ٢٧ ،-٢٨ .

(٥) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٨٠ .

(٦) الأخلاق عند الغزالى د / زكى مبارك ص ١٧٩ .

(٧) الحديث – ورد فى كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال – العلامة علاء الدين الهندى ج٣ ص ١٠٦ تحت رقم ٥٧٠٦ وهو مروى عن ابن عباس بلفظ ، أو ألفاظ متقاربة – باب التفكر طبعة مؤسسة الرسالة .

لأن البحث فى ذات الله إشراك أما البحث فى مخلوقات الله إدراك يطمع الإمام الغزالى فى معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين الجهل ونفس الضلال ، ويطمع كذلك فى معرفة صفاته التامات ، وهو الذى بلغ به الأدب مع الأشاعرة . والمعتزلة إلى الاختلاف فى صفات الله تعالى وفى كلامه وفى أفعاله وفى رؤيته بالأبصار يوم القيامة ، إلى غير ذلك من المباحث التى لا تقوم عليها غير عمى القلوب .

والظاهر أن الإمام الغزالى ومن على مشاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة بين الهدى والضلال ولم يروا يوماً واحداً كيف تتصاول العقول فإن البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه وإنما سبيل المؤمنين أن يتأملوا فى المادّ من أن الله سخر لهم ما فى الأرض جميعاً .

فإنه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده وترى عينه ليغيب فى مجاهل من الظنون يسميها سفها علم التوحيد[١] .

وبذلك يكون الإمام الغزالى فتح باب الكشف على مصراعيه يدخل منه هؤلاء الصوفية مروجين لأفكار الفلسفة اليونانية بمختلف اتجاهاتها فكأن نفس الفلسفة التى رفضها مفكرو المسلمين الأصلاء ، عاد الصوفية من أصحاب وحدة الوجود وغيرهم فقدموا للمسلمين بدعوى أنها مكاشفات حدثت لهم[٢] .

ومن الوجهة العقلية ، لا تنتج المكاشفة عند صاحبها يقينا كاملاً بل تنتج بعض ما يؤدى إلى ما يؤدى إلى ما يسمى احتمالات ، والاحتمال معرفة يأتى برهاناً بعدها ، وهذه الدرجة من الشك هى التى تميز المكاشفة من الوحى من الناحية النفسية أما يقين النبى ﷺ فقد كان كاملاً مع وثوقه بأن المعرفة الموحى بها غير شخصية ، وطارئة وخارجة عن ذاته.

ثم أن النبوة ، اختصاص واختيار من الله تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[٣] وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يجمع الإمام الغزالى بين هذا الطريق الذى ليس ملكاً للنبى ﷺ بصفته الإنسانية وبين الكشف والإلهام الذى يعتبره حجة الإسلام طريقاً للمعرفة ، انه من المعلوم أن هذا الكشف لو كان ممكنا لكان السابقون أحق الناس بهذا ومع هذا فما منهم من ادعى أنه أدرك بنفسه ما أخبره به الرسول ﷺ[٤] .

---

(١) الأخلاق عن الغزالى د / زكى مبارك ص ١٧٩ .

(٢) ابن تيمية والتصوف د / مصطفى حلمى ص ٢٥٨ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم : ١٢٤ .

(٤) حولية كلية أصول الدين بأسيوط العدد ١٦ لعام ١٩٩٨ ص ٧٥ .

المبحث الرابع

نظرية الفناء عند الإمام الغزالى

مفهوم الفناء عند الإمام الغزالى :

يقول الإمام الغزالى — ان معنى الفناء هو أن يتولى الحق تصريفه ويحفظه فيما له عليه ، ويأخذه من نفسه ويفنيه عن الأشياء كلها شغلاً به ويسقط عنه الحظوظ ، فلا يكون له فى شئ حظ .

والموصوف بهذه الصفة تكون كل حركاته فى موافقات الحق تعالى دون مخالفاته ، فيكون فانياً عن المخالفات ، باقياً بالموافقات ، كما يصبح فانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق سبحانه وتعالى[1] .

مفهوم الفناء عند الصوفية :

الفناء عندهم هو أن يفنى عنه الحظو ، فلا تكون له فى شئ من ذلك حظاً ، ويسقط عنه التميز فناءً عن الأشياء بما فنى به ، كما قال " عامر بن عبد الله " ما أبالى امرأة رأيت أم حائطا ، والحق يتولى تصريفه فى وظائفه وموافقاته ، فيكون محظوظ فيما لله عليه ، مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات فلا يكون له إليها سبيل وهو العصمة[2] .

أقسام الفناء عند الصوفية :

لقد قسم العلامة ابن القيم الجوزية الفناء إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — الفناء عن وجود السوى .

٢ — الفناء عن شهود الهوى .

٣ — الفناء عن إرادة السوى .

أولاً : الفناء عن وجود السوى :

وقال فيه هو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود وأنه ما ثم غيره ، وأن غاية العارفين والسالكين الفناء فى الوحدة المطلقة ، ونفى التكثر والتعدد عن الوجود لكل اعتبار .

فلا يشهد غيراً أصلاً ، بل يشهد وجود العبد عن وجود الرب ،بل ليس عندهم فى الحقيقة رب وعبد .

ثم أخبر الإمام ابن القيم عن درجات هذه الطائفة فقال : المحجوب عندهم يشهد أفعاله طاعات أو معاصى ما دام فى مقام الفرق ، عند ارتفاع الدرجة يشهد طاعات لا معصية فيها ، لشهوده الحقيقة الكونية الشاملة لكل موجود ، فإذا ارتفعت درجة عندهم فلا طاعة ولا معصية بل ارتفعت الطاعات والمعاصى ، لأنها تستلزم اثنينة وتعدداً .

وتستلزم مطيعا ومطاعاً ، وهذا عندهم محض الشرك ، والتوحيد المحض بأباه ، فهذا فناء هذه الطائفة .

ثانياً : الفناء عن شهود السوى :

وقال فيه ابن القيم — فهو الفناء الذى يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ويعدونه غاية وهو الذى بنى عليه أبو إسماعيل كتابه ثم قال وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله ، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم ثم قال : وقد يسمى حال مثله هذا سكراً واصطلاحاً ومحواً وجمعاً ، وقد يفرقون بين معانى هذه الأسماء .

---

(١) حجة الإسلام — أبو حامد الغزالى د / حمزة النشرتى ص ١٧٤ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف — الإمام الكلاباذى ص ٩٢ .

وقد يغلب شهود القلب بمحبوبته ومذكوره حتى تغيب به ويفنى به فيظن أنه اتحد به وامتزج ، بل يظن أنه هو نفسه .

ثم قال وهذا الفناء يحمد منه شئ ويذم منه شئ ويعفى عنه شئ فيحمد منه فناؤه عن حب ما سوى الله تعالى وعن خوفه ورجائه والتوكل عليه ، والاستعانة به ، والالتفات إليه ، بحيث يبقى دين العبد ظاهراً وباطناً كله لله سبحانه وتعالى .

وأما عدم الشعور والعلم بحيث لا يفرق صاحبه بين نفسه وغيره ولا بين الرب والعبد ، ولا بين شهوده ومشهوده ، بل لا يرى السوى ولا الغير فهذا ليس محمود[1] .

ثالثا : الفناء عن إرادة السوى :

وهو فناء الخواص ، أو خواص الأولياء وأئمة المقربين وقال فيه ابن القيم ، عندما يكون المرء هائماً يرف الفناء عن إرادة ما سواه سالكاً إلى سبل الجمع على ما يحبه ويرضاه .

فانياً بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه فضلاً عن إرادة غيره . قد اتحد مراده بمراد محبوبه ، أعنى المراد الدينى ، لا المراد الكونى القدرى ، فصار المرادان واحداً .

ويقول عنه ابن القيم — وليس فى العقل اتحاد صحيح إلا هذا فغاية المحب اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب ، فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم ، فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه وبحبه وخوفه ورجاءه والتوكل عليه والاستعانة به ، والطلب منه عن حب ما سواه وخوفه ورجائه والتوكل عليه ، ومن تحقيق هذا الفناء ألا يحب إلا الله ولا يبغض إلا فيه ، ولا يوالى غلا فيه ، ولا يعادى إلا فيه ، ولا يعطى إلا له ، ولا يمنع إلا له ، ولا يرجوا إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، فيكون دينه كله ظاهراً وباطنا لله ، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[2] .

كيفية الوصول إلى الفناء عند الإمام الغزالى :

عن تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء الله تعالى والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية ، فستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات ومعرفة ، لا تتأتى لذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

فطريق البصيرة طريق صواب ، ولكن الكثيرين يشكون فى هذا الطريق — طريق البصيرة ، الذى سبيله التزكى والتطهر ، للوصول إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير ، أو خرافة من الخرافات ويطلبون فى إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة والرسالة والعبد الصالح كل هذه أمور خارقة للعادة أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة ؟ إلى هؤلاء نقول — ما قاله — الشيخ " عبد الواحد يحيى ، لأمثالهم من المعترضين — قاله فى ساحة السربون لاساتذة الجامعة وعلماء النفس حينما دعوه ليحاضرهم فى ما وراء الطبيعة ، سيساءل قوم أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما ورائها إننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح ليس ذلك ممكناً فحسب ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذه الأمور ووجوده أنه لمن الغريب حتما أن يطلب البرهان على

---

(١) مدارج السالكين — لابن القيم الجوزية ج١ ص ١٧٣ .

(٢) مدارج السالكين — لابن القيم الجوزية ج١ ص ١٧٥ .

إمكان نوع من المعرفة بدلا من أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية سالكا إليها ما تتطلبه من سبيل[١] .

الفناء فى التوحيد عند الإمام الغزالى :

يلتقى الفناء فى المعرفة مع الفناء فى التوحيد فالمعرفة هى توحيد خالص ، وقد سئل بعض العارفين عن المعرفة فقال تحقيق القلب بإثبات وحدانيته بكمال صفاته وأسمائه ، فإنه المتفرد بالعز والقدرة والسلطان الحى الدائم الذى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }[٢] . بلا كيف ولا شبهة ولا مثل تنفى الأضداد والأنداد والأسباب عن القلوب[٣] .

ويقول الشيخ محمد عبد الرحيم المغربى القناوى رضى الله عنه إلهية فى القلوب لعظمة الله تعالى ، هو طمس أبصار البصائر عن مشاهدته ممن سواه حسباً ، فلا يرى إلا بأنوار الجلال ، ولا يسمع إلا بسواطع الجمال ، والرضا سكون القلب تحت مجارى الأقدار بنى التفرقة حالاً ، وعلم التوحيد جميعاً فيشهد القدر بالقادر ، والأمر بالآمر وذلك يلزمه فى كل حال من الأحوال[٤] .

مراتب التوحيد عند الإمام الغزالى :

التوحيد له عند الإمام الغزالى أربعة مراتب :

المرتبة الأولى : هى أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله ، وقلبه غافل عنه او منكر له كتوحيدج المنافقين .

المرتبة الثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما يصدق به عوام المسلمين وهو اعتقاد العوام .

المرتبة الثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار .

المرتبة الرابعة : أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً فى نفسه بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق أجمعين[٥] .

وهذا عين الفناء فى التوحيد ، وفى المعرفة أيضاً ، لأن الموحد العارف فى هذه الحالة تسلب منه ذاته ، فلا يرى فى الوجود إلا الله ومن علامة المعرفة الحقيقية ان يرى العبد نفسه فى مخيفة العزة ويجرى عليه تصاريف القدرة[٦] .

فعندما يكون العارف لا يرى إلا الله سبحانه وتعالى ولا يعرف غيره ، ويعلم أنه ليس فى الوجود إلا هو وأفعاله ، ومن هذه حالة لا ينظر فى شر من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر إلى ذلك كله من حيث إنه صنع الواحد الحق ، فكل العالم إذن تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث أنه فعل الله ، لم يكن ناظراً إلا فى الله ، ولا عارفاً إلا بالله ، ولا محباً إلا الله ومن هذا حاله هو الموحد الحق الذى لا يرى غلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه

---

(١) أبحاث فى التصوف الإسلامى د / عبد الحليم محمود ص ٣٩٤ ضمن كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالى .

(٢) سورة الشورى من الآية رقم : ١١ .

(٣) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦٢٥ .

(٤) الطبقات الكبرى – الإمام الشعرانى ج١ ص ٢٦٤ .

(٥) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى ج٤ ص ٣٧٨ .

(٦) التصرف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦٢٥ .

من حيث نفسه ، بل من حيث انه عبد الله ، فهذا هو الذى يقال فيه انه فنى فى التوحيد وأنه فنى عن نفسه ، وإليه الإشارة بقول من قال " كنا بنا فلينا عنا فبقينا بلا نحن "[١] .

والإنسان الذى يتوصل إلى معرفة حقيقة الذات يتوصل عن طريق ذلك أيضاً ، على معرفة الله سبحانه وتعالى على أنه خالقه وحافظه ، فإن عرف نفسه وعرف ربه ، عرف قطعاً انه لا وجود فى ذاته ، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده ، وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله وهذا هو عين اليقين[٢] .

اليقين ودرجاته عند الإمام الغزالى :

يقول الإمام الغزالى عن اليقين — إن الاعتقاد والعلم إذا استوليا على القلب ، ولم يكن لهما معارض أثرا فى القلب المعرفة ، فسميت هذه المعرفة يقيناً لأن حقيقة اليقين ، صفاء العلم المكتسب حتى يصير كالعلم الضرورى ، ويصير القلب مشاهداً لجميع ما أخبر به الشرع من أمر الدنيا والآخرة .

وحجة الإسلام يرى أن درجات اليقين أربعة :

الأول : أن يعتدل التصديق والتكذيب ، ويعبر عنه بالشك .

الثانى : إن ميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ، ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول .

الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق وبشئ بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ، ولكن ليس ذلك مع مع رفة محققة ، إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والصفاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز ، وهذا يسمى اعتقاداً مقارناً باليقين ، وهو اعتقاد العوام من الشرعيات كلها .

الرابع : المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه ، ولا يتطور الشك فيه ، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً[٣] .

بهذا الوضوح يصف الإمام الغزالى تجربة الفناء فى التوحيد ، الذى هو ثمرة المعرفة ، ويعيب على غيره ، فمن لم يحسن التعبير عناه قائلاً فهذه أمور (أى الأمور المتعلقة بالفناء) معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الإفهام عن دركها ، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها ، وبيانها بعبارة مبهمة موصلة للغرض إلى الإفهام ، أو بانشغالهم بأنفسهم واعتقادهم ، أن بيان ذلك لغيره مما لا يعنيهم ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى .

على أن الإمام الغزالى من ناحية أخرى ، يرى أن التعبير عن حقائق التوحيد التى تنكشف فى حال الفناء بألفاظ اللغة ، يوقع صاحبه فى اشكالات لا حصر لها ، فيؤثر لذلك الإمساك عن الخوض فيها . نجده يقسم التصوف إلى قسمين :

الأول : التصوف كعلم المعاملة ، وهذا هو ما دونه فى إحياء علوم الدين .

والثانى : التصوف كعلم المكاشفة ، وهذا لا رخصة فى إيداعه الكتب[٤] .

ويرى الإمام الغزالى ، أن التوصل إلى المكاشفة قد خاض لجة الحقائق ، وعن ساحل الأصول والأعمال ، واتحد بصفات التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص ، فلم يبق فيه منه شئ أصلاً ، بل خمدت بشريته وفنى التقائه إلى صفات البشرية بالكلية .

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٦ .

(٢) المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت د / محمود حمدى زقزوق ص ١١٧ .

(٣) الإنسان فى فلسفة الغزالى وتصوفه د / زكى محمود ص ١١٣ .

(٤) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٧ .

وليس المقصود بقاء جسده ، وإنما فناء قلبه وليس المقصود بالقلب ذلك اللحم بل السر اللطيف وهذا الفناء مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال انا الحق (يشير هنا إلى الحلاج) ونهو غلط محض يضاهى غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة ، إذا ظهر فيها لون الحمرة من مقابلها .

والإمام الغزالى ، يحوم فى الحقيقة فيما يسميه بعلم المكاشفة حول مشكلة الواحد والكثير وهى مشكلة ميتافيزيقية ، يحاول ان يقدم لها حلاً على أساس شعورى لا عقلى ، من قوله بأن الكثرة والوحدة أمران يستشعرهما بالنسبة للأشياء ، يمكن ان ندرك الشئ الواحد على أنه كثير كما يمكن أن ندرك الكثير على أنه واحد ، فالوحدة ليست وجودية ، وإنما هى شهودية .

وإذاً هى شعور يتم عند الصوفى فى حال الفناء[١] وإذا كانت المعرفة بهذه الصورة ، فلابد أن يكون الفناء أيضاً ثمرة للمعرفة ، بل المعرفة لبس الفناء وجوهره ، لأنها الحصيلة التى يخرج بها الصوفى من الطريق فيتحقق من الفناء بقدر تحققه من المعرفة ، والعارفون بالله فانون عن أنفسهم ، لا قوام لهم بذاتهم ، فهم يتحركون بحركة الله ، وينطقون عن الله بما يجرى على ألسنتهم ، وينظرون بنور الله ، فالله هو المريد فى الحقيقة لكل شئ ولابد للعبد أن يتخلى عن إرادته لكى يترك كل شئ لله سبحانه وتعالى[٢] .

يتبين لنا مما سبق ، أن الإمام الغزالى حريص كل الحرص على الملاءمة بين الفناء والعقيدة الإسلامية ، فهو لا ينطق كأصحاب وحدة الوجود إلى القول بأنه ما تم غير ، وإنما يجعل الوحدة التى تتم فى حال الشهود غير منافية الكثرة ، وتميز بين وجود الله سبحانه وتعالى وبين وجود العالم[٣] .

العلاقة بين التوحيد والفناء عند الإمام الغزالى :

إن التوحيد الخالص يؤدى بالضرورة إلى الفناء ولا يكون الفناء صحيحاً عند الإمام الغزالى إلا إذا سبقه توحيد خالص ، وهو أن يعرف العبد ليس فى الوجود غير الله وأن { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }[٤] .

وأن ذلك صدق فى كل حال أزلاً وأبداً ، لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير لا وجود له ، بل هو محال أن يوجد ، إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه ، وما ليس له بنفسه قوام ، فليس له بنفسه وجود ، بل هو قائم بغيره ، فهو موجود بغيره فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره ، لم يكن له وجود البته ، وإنما الموجود هو القائم بنفسه ، والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجوداً فإن قيامه بنفيه يقوم بوجود وجود غيره ، فهو قيوم ، ولا قيوم إلا واحد ، ولا تصور أن يكون غير ذلك ، فإنه ليس فى الوجود غير الحى القيوم ، وهو الواحد الصمد ، فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره إليه وإليه مرجعه[٥] .

تعقيب على نظرية الفناء عند الإمام الغزالى :

لا شك أن الإمام الغزالى هو الذى وضع قواعد التصوف السنى وأصوله ، وهو الذى بين طرقه ووسائله فى كتابه (إحياء علوم الدين) الذى أضحى بسببه عمده المتصوفين المتأخرين بلا استثناء .

إلا أن الإمام الغزالى يجهر هنا بنظريات تبدو متناقضة ، تناقض بعض آرائه الكلامية والفلسفية ، فتراه مثلا يحارب محاربة عنيفة ويرفض رفضاً تاماً ، نظرية الاتحاد الحلاجية فى كتابه الإحياء ، على أنه يميل إليها ويقول شيئاً يشابهها تمام المشابهة فى كتاب " مشكاة الأنوار " وهذه نقطة ضعف لاحظناها عليه من قبل ، ولعل تطوراً حدث فى آرائه هو السر فى هذه النظريات المتناقضة .

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٧ .

(٢) التصوف السنى د / مجدى إبراهيم ص ٦٢٦ .

(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٧٩ .

(٤) سورة القصص من الآية رقم : ٨٨ .

(٥) التصوف السنة د / مجدى إبراهيم ص ٦٣٠ .

ومهما يكن من شئ فإن كتاب الإحياء هو مصدر التصوف السنى عن غير جدال ، وعليه نعتمد هنا أولاً وبالذات ، وهو الذى أثر وحده تقريباً من بين كتب الغزالى الصوفية فى المتصوفين المتأخرين[١] .

وأخيراً نقول – إذا كان الصوفية يدعون إلى وحدة الوجود ويدعون أن ذلك فناءً وسكراً فإنا نقول لهم ، عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وهم سادات العارفين ، وأئمة الواصلين المقربين ، وقدوة السالكين لم يكن منهم من ابتلى بذلك مع قوة إرادتهم وكثرة منازلهم ومعاينة ما لم يعاينه غيرهم ، ولا شم له رائحة ، ولم يخطر على قلبه فلو كان هذا الفناء كمالاً لكانوا هم أصحابه وأهله ، وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم .

ولا كان هذا أيضاً لنبينا محمد ﷺ ولا حال من أحواله ﷺ ولهذا فى ليلة الإسراء والمعراج لما أسرى به وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى ، لم تعرض له هذه الحال ، بل كما وصفه الله عز وجل بقوله تعالى : { مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى }[٢] .

ومع هذا فأصبح بينهم لم يتغير عليه حاله ن ولم يعرف له ضعف ولا غشى ، يخبرهم عن تفصيل ما رأى غير فان عن نفسه ولا عن شهوده ، ولهذا كانت حاله أكمل من حال سيدنا موسى ابن عمران عليه السلام لما خر صعقا حين تجلى ربه للجبل وجعله دكا[٣] .

وصدق الله العظيم حيث قال فى محكم التنزيل { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }[٤] .

---

(١) فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه د / إبراهيم مدكور ج١ ص ٦٢ .

(٢) سورة النجم الآيات رقم : ١٧ – ١٨ .

(٣) الرسالة القشيرية – لإمام القشيرى ص ١٣٠ وما بعدها .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٤٣ .

المبحث الخامس

نظرية السعادة عند الإمام الغزالى

مفهوم السعادة فى الإسلام :

إن نظرية السعادة نظرية أخلاقية فى أساسها ولكنها لم تلبث أن تحولت لدى فلاسفة الإسلام إلى بحوث صوفية دقيقة ، ولغة المتصوفة إنما تناجى القلب ، وتحدث الروح ، وفى مناجاة القلب طهره ، ومحادثة الروح عروج إلى سماء النور والملائكة ، وبذا نهجر الأجسام زمناً ونفرغ إلى نفوسنا حينا ، والجسم والنفس كانا ولا يزالون فى صراع دائم وعراك مستمر ، يقدر فيه لأحدهما الفوز تارة وللآخر أخرى[١] .

ولما كانت السعادة الأخلاقية التى هى غاية الصوفية المسلمين قد تركزت حول الله سبحانه وتعالى سواء كان ذلك طمعاً فى جنته أو خشية من ناره أو محبة لذاته أو فناء عن البشرية للبقاء به سبحانه وتعالى أو معرفة له إلى غير ذلك من الصور ، فقد اعتبر الصوفية أن الطريق إلى السعادة هو الطريق إلى الله عز وجل ، وأنه بذلك أشرف الطرق وأكمل السبل[٢] .

وبناء على ذلك ، فالسعادة التى ينشدها المسلم أعم وأشمل وأكمل مما يطلبه الناس فى الشرف والغرب أو يحكى عنه الفلاسفة وعلماء الاجتماع وغيرهم ، إنها الرضى عن الله فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وهى الفرحة التى تغمر القلب والروح حتى فى الفقر والرضا .

إنها امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده فليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى .

وما سعد من سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقى من شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره جل وعلا .

فالسعيد هو المؤمن الموافق لفعل الخيرات وترك المنكرات ، وهو الذى أقامه سبحانه وتعالى على طاعته فشكر فى السراء وصبر فى الضراء ، وعلم أن المرجع والمآب إلى الله ، فامتلأ قلبه برضا الله ، وكان عنده من البصيرة ما جعله يطلب سعادة الدارين[٣] .

قال تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[٤] .

فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة وتجرد بنفسه اللطيفة التى عنى بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العليه ، فقد فاز وأعد ذاته للقاء خالقه عز وجل إعداداً روحانياً ، ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التى كانت تعوقه عن سعادته ، ولا شوق إليها ، لأنه قد تطهر منها وتنزه عنها ، ولم تبق فيه إرادة لها ، ولا حرص عليها ، وقد استخلصها للقاء رب العالمين .

---

(١) فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه د / إبراهيم مدكور ج١ ص ٣٤ .

(٢) المذاهب الأخلاقية فى الإسلام د / عبد الحى قابيل ص ٢١٨ .

(٣) كيف تنال السعادة الحقيقية — سعيد عبد العظيم ص ١١ وما بعدها .

(٤) سورة انحل آية رقم : ٩٧ .

ولقبول كرامته وفيض نوره الذى كان غير مستعد له ، ولا فيه قبول من عطائه ،ويأتيه حينئذ الذى وعد به المتقون والأبرار[١] .

قال تعالى : { وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}[٢] .

ويقول سبحانه وتعالى : { فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ }[٣] فما بعد هذه السعادة وما بعد هذا الفوز فوز .

مفهوم السعادة عند الإمام الغزالى :

إن سعادة الإنسان الحقيقية فى نظر الإمام الغزالى إنما تكون فى معرفة الله سبحانه وتعالى ويدلل على ذلك بقوله : إن سعادة كل شئ تكون فى لذاته وراحته ، ولذة كل شئ تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شئ ما خلق له ، فلذة العين فى الصور الحسنة ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة[٤] .

أما القلب ، وهو طريق المعرفة اليقينية فإن لذته تحصل من معرفته لله ، وهى المعرفة التى خلق القلب لها واختص بها من دون الجوارح ، وليس من شك فى أن اللذة الحاصلة من معرفة الله أعظم من اللذة الحاصلة من معرفة أى شئ آخر ، إذ كلما كان موضوع المعرفة أجل وأشرف ، كانت المعرفة نفسها أدق وألطف ، وكانت اللذة الحاصلة منها أقوى وأروع ، وإذا كان الإنسان يستشعر لذة من معرفة الوزير ويستشعر لذة أكبر إذا أتيحت له معرفة الملك ، فكيف باللذة التى يستشعرها إذا تهيأ له الاتصال بالملك الأعظم ، فعرفه وأنس به ، ودنا منه الحق ، إنها لذة لا تعادلها لذة أخرى ، لأن الله تعالى هو أشرف ما فى الوجود ، وليس فى الوجود ما هو أشرف منه سبحانه وتعالى[٥] .

وإذا كان ذلك كذلك ، فقد بان إذن أن ليس ثمة معرفة أعز من معرفة الله سبحانه وتعالى ولا لذة أعظم من لذة معرفة الله سبحانه وتعالى ولا منظر أجمل من منظر حضرته جلا وعلا ، وبان معه أيضا أن ذلك راجع إلى أن لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس فى اتصالها بالبدن وتدبيرها له ، وان هذه اللذات تبطل بالموت فى حين أن لذة معرفة الربوبية لأنها متعلقة بالقلب ، والقلب لا يهلك بالموت فهى من هذه الناحية أدوم وأبقى من غيرها ولا تبطل بالموت بل إنها فى الموت تكون أشد وأقوى ، إذ أن ما ينكشف للقلب من الأنوار فى الموت أكثر سناء وأوفر بهاء ، لأنه عندئذ يكون قد خرج من الظلمات إلى النور[٦] .

ويتميز الإمام الغزالى عمن سبقه من الصوفية بأن جعل من السعادة ، نظرية متكاملة ، ولم يكن قبله من الصوفية قد تناولوها بالتفصيل ، وإنما تحدثوا عنها من خلال خالى الطمأنينة والرضا وغير ذلك[٧] .

أقسام السعادة عند الإمام الغزالى :

ويجعل لنا حجة الإسلام الإمام الغزالى السعادة فى خمسة أنواع :

الأول : السعادة الأخروية : وهى بقاء لا غم فيه ، وعلم لا جعل معه وغنى لا فقر معه يخالطه ، ولن يتوصل إليه إلا بالله ، ولا يكتمل إلا .

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف – العلامة ابن مسكويه ص ٩٥ .

(٢) سورة هود آية رقم : ١٠٨ .

(٣) سورة آل عمران من الآية رقم : ١٨٥ .

(٤) دراسات عقلية وروحية فى الفلسفة الإسلامية د / على عبد الفتاح المغربى ص ٢٥٩ .

(٥) الحياة الروحية فى الإسلام د / مصطفى حلمى ص ١٦٠ .

(٦) الحياة الروحية فى الإسلام د / مصطفى حلمى ص ١٦١ .

(٧) مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا التفتازانى ص ١٨١ .

النوع الثانى : وهو الفضائل النفسية : وتشمل العقل ، وكمال العلم والعفة وكمال الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكماله الإنصاف ، وإنما تتكامل هذه الفضائل .

النوع الثالث : وهى الفضائل البدنية : كالصحة والقوة والجمال وطول العمر ويتممها .

النوع الرابع : وهى الفضائل المطبقة : وتشمل المال والأهل والعز وكرم العشيرة ، ولا يتم الانتفاع من ذلك إلا به .

النوع الخامس : وهى الفضائل التوفيقية : وتشمل هداية الله ورشده وتسديده ، وتأييدها .

فهذه السعادات بعد السعادة الأخروية ستة عشر ضرباً ، ولا يدخل للاجتهاد فى اكتساب شئ منها إلا بالفضائل النفسية[١] .

طريق الوصول إلى السعادة عند الإمام الغزالى :

يقول الإمام الغزالى — وقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان ، وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة[٢] .

فإذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً فى نفسه فيكون مطلوباً لذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها إلى القرب من الله تعالى ، ولا يتوصل إليه إلا به ، وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم ، فهو إذن أفض الأعمال ، وكيف لا وقد يعرف فضيلة الشئ بشرف ثمرته ، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين ، والإتحاف بأفق الملائكة ومقاربة الملأ الأعلى ، هذا فى الآخرة وأما فى الدنيا فالعز والوفاء ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام فى الطباع يكون بسبب العلم[٣] قال تعالى : { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }[٤] .

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الغزالى لا يرى أن عين القلب تستطيع معرفة الله ومشاهدة جمال حضرته فى الموت فقط ، أو فيما يشبه الموت فى حال النوم ، وإنما هو يرى أنها تنفتح كذلك فى حال اليقظة ، وذلك عند من أخلص الجهاد والرياضة ، وتخلص من الشهوة والغضب وسائر الأخلاق المذمومة ، فإذا خلا العبد إلى نفسه وعطل طريق الحواس ، وفتح عين باطنه وسمعه ، ودأب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه حتى يصبح ولا خير له من نفسه ، ولا من العالم ، ولا بشئ يملك عليه غير مشاهدة الذات الإلهية .

فهناك تتفتح عين القلب ، ويصبح الإنسان قادراً على أن يبصر فى اليقظة ما يبصره فى النوم ، وهناك يشاهد الحقائق العليا والمناظر الجليلة التى لا يمكن شرحها ووصفها .

وينكشف له ملكوت السموات والأرض ، إذ أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العالم راجع إلى أنه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والاشتغال بالعالم المادى ، والإقبال على ما فيه من لذات حسية ، لا تلبث له أن تعرض له حتى تزول ، وكثيراً ما تعقب له ألاماً[٥] .

ويحدد الإمام الغزالى طريق الوصول إلى السعادة الحقيقية ، وهو يقوم على تحقيق الوسط بين قوى النفس الثلاث ، قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العلم ، فتخضع قوى الغضب والشهوة للحكمة ، وبذا تتحقق الأخلاق الحسنة التى يستطيع أن يبلغ الإنسان عن طريقها السعادة وان يتخلق بأخلاق الملائكة .

---

(١) الإنسان فى فلسفة الغزالى وتصوفه د / زكى مبارك ص ١٨٧ .

(٢) المنقذ من الضلال — الإمام الغزالى ص ٥٥ .

(٣) إحياء علوم الدين — الإمام الغزالى ج١ ص ٢٧ .

(٤) سورة المجادلة من الآية رقم : ١١ .

(٥) الحياة الروحية فى الإسلام د / مصطفى حلمى ١٦١ .

ولذلك فإن حجة الإسلام يحصر أجناس الأخلاق فى أربعة وهى :

أولاً : أخلاق الشياطين : وهى أعمال النفس من المكر والحيلة والغش وغير ذلك .

ثانياً : أخلاق البهائم : وهى أعمال السوء من الأكل والشرب والنوم والنكاح .

ثالثاً : أخلاق السباع : وهى أعمال الغضب من الضرب والقتل والخصومة .

رابعاً : أخلاق الملائكة : وهى أعمال العقل التى هى الرحمة والعلم والخير .

فعلى الإنسان أن يقوم بتخلية نفسه من الأخلاق السيئة المتمثلة فى أخلاق البهائم والسباع والشياطين وتحليتها بالأخلاق الحسنة المتمثلة فى أخلاق الملائكة .

عندئذ يبلغ أقصى درجات السعادة[1] لأن كمال العبد وسعادته تكون فى التخلق بأخلاق الله تعالى ، والتحلى بمعانى صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور فى حقه ، فمن لم يكن له حظ من معانى أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم فى اللغة تفسيره ووضعه ويعقد بالقلب وجود معناه فى الله تعالى ، فهو منحوس الحظ نازل الدرجة ، ليس يحس له أن ينتج بما ناله ، فإن سماع اللفظ لا يستدعى إلا سلامة حاسة السمع التى بها يدرك الأصوات ، وهذه رتبة يشارك فيها البهيمة ، وأما فهم وضعه فلا يستدعى إلا معرفة القريبة ، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوى بل الغبى البدوى .

وأما اعتقاد ثبوت معناه الله تعالى فمن غير كشف فلا يستدعى إلا فهم معانى هذه الألفاظ والتصديق بها ، وهذه رتبة يشارك فيها العامى بل الصبى .فإنه يعد فهم الكلام إذا ألقى إليه هذه المعانى تلقاها وتلقنها واعتقد بلقبه وصمم عليها .

وهذه درجات أكثر العلماء فضلاً عن غيرهم ولا ننكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من نشاركهم فى هذه الدرجات الثلاث ، ولكنه نقص ظاهر إلى ذروة الكمال ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، بل حظوظ المقربين من معانى أسماء الله الحسنى[2] .

تعقيب على نظرية السعادة عند الإمام الغزالى :

إذا كان الصوفية يقولون ، إذا كانت الأمور مقدرة فى القدم وأن أقواماً خصوا بالسعادة وأقواماً خصوا بالشقاوة ، والسعيد لا يشقى والشقى لا يسعد ، والأعمال لا يراد لذاتها بلا وذلك لاجتلاب السعادة ودفع الشقاوة ، وقد سبقنا وجود الأعمال ، فلا وجه لإتعاب النفس فى عمل ولا نكفها عن ملذوذ ، لأن المكتوب فى القدر واقع لا محالة[3] .

فإنا نرد عليهم ونقول لهم أن هذا الكلام الذى تقولونه فيه رد لجميع الشرائع السماوية ، وإبطال لجميع أحكام الكتب وتكذيب للأنبياء كلهم أجمعين فيما جاءوا به ، لأنه إذا قال المولى عز وجل فى القرآن الكريم أن أقيموا الصلاة ، قال القائل لماذا إن كنت سعيداً فصيرى إلى السعادة ، وإن كنت شقياً فمصيرك إلى الشقاوة ، فما تنفعنى إقامة الصلاة وكذلك إذ قل المولى عز وجل ولا تقربوا الزنا ، يقول القائل ، لماذا أمنع نفسى من ملذاتها والسعادة والشقاوة مقضيتان قد فرغ منهما ، ولكن هذا الكلام باطل ، لأنه يترتب عليه عدم الفائدة من إرسال الرسل ، وعدم الفائدة من إنزال الكتب السماوية ، فالإنسان له كسب هو اختياره وعليه يقع الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة[4] .

---

(١) دراسات عقلية وروحية فى الإسلام د / على عبد الفتاح المغربى ص ٢٦ .

(٢) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى – الإمام الغزالى ص ٢٤ .

(٣) تلبيس إبليس – لابن الجوزى البغدادى ص ٣٨٦ .

(٤) المصدق السابق .

الخاتمة

وأخيراً أختم حديثى عن هذا الموضوع بالنتائج التى توصلت إليها من خلال هذا البحث وهى كالتالى :

أولاً : إن الإمام الغزالى له مكانة عظيمة فى عقول المسلمين وقلوبهم ، لأنه حجة الإسلام — ومجدد المائة الخامسة فى عصره .

ثانياً : إن الإمام الغزالى له أثر عظيم على التصوف الإسلامى لأنه نقل التصوف من مجرد الذوق والتحليق والشطح والتهويل إلى علم أخلاقى عملى يعالج أمراض القلوب وآفات النفوس ويزكيها بمكارم الأخلاق الحميدة .

ثالثاً : إن الإمام الغزالى هو الذى وضع قواعد التصوف السنى وأصوله وهو الذى بين طرقه ووسائله ، وهو الذى حدد غاياته وأهدافه .

رابعاً : إن الإمام الغزالى رفض التصوف المذموم الذى يعتمد على النظريات التى لا يقرها الإسلام كنظرية الحلول والاتحاد وغيرها .

خامساً : إن الإمام الغزالى له مؤيدين ومعارضين شأنه فى ذلك شأن جميع أهل العلم والفكر فى كل زمان ومكان .

سادساً : إن الإمام الغزالى له منهج خاص فى التصوف الإسلامى ، لأنه جعل من التصوف نظريات صوفية متكاملة ، وهذا لم يحدث من قبل .

سابعاً : إن الإمام الغزالى جعل من التصوف طريقاً إلى المعرفة بالله تعالى ولذلك كانت المعرفة عنده هى العلم الذى لا يقبل الشك .

ثامناً : إن علم المكاشفة عند الإمام الغزالى هو علم خفى ، لا يعلمه إلا أهل العلم بالله سبحانه وتعالى .

تاسعاً : إن التوحيد الخالص عند الإمام الغزالى يؤدى إلى الفناء ولا يكون الفناء صحيحاً إلا إذا سبقه توحيد خالص .

عاشراً : إن السعادة الحقيقة عند الإمام الغزالى ، تكون فى معرفة الله سبحانه وتعالى .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم ، وأن ينفع به المسلمين أجمعين أنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير والله الموفق .

دكتور

فضلون محمد محمد مصطفى

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم – كتاب الله تعالى .
٢ – حلية الأولياء – العلامة أبى نعيم الأصفهانى – طبعة دار الفكر .
٣ – كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال – العلامة علاء الدين الهندى طبعة مؤسسة الرسالة .
٤ – إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى تحقيق الأستاذ / سيد إبراهيم – طبعة دار الحديث – القاهرة ١٩٩٤م .
٥ – المنقذ من الضلال – الإمام الغزالى ومعه أبحاث فى التصوف الإسلامى ودراسات عن الإمام الغزالى – بقلم د / عبد الحليم محمود الطبعة الثانية ١٩٧٤ م دار الكتب الحديثة – القاهرة .
٦ – تهافت الفلاسفة – الإمام الغزالى تحقيق د / سليمان دنيا – الطبعة الثامنة دار المعارف – القاهرة .
٧ – المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى – الإمام الغزالى – تقديم الشيخ محمود النواوى مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة .
٨ – مكاشفة القلوب – الإمام الغزالى تحقيق الأستاذ / طه عبد الرؤوف مكتبة الإيمان – المنصورة – الطبعة الأولى ص ١٩٩٩م .
٩ – الطبقات الكبرى – الإمام عبد الوهاب الشعرانى المكتبة التوفيقية القاهرة .
١٠ – الرسالة القشيرية – الإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق الأستاذ / هانى الحاج المكتبة التوفيقية – القاهرة .
١١ – تلبيس إبليس – العلامة أبى الفرج ابن الجوزى البغدادى – تحقيق الأستاذ / السيد العربى – مكتبة الإيمان – المنصورة .
١٢ – تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف – العلامة ابن مسكويه – تقديم الشيخ / حسن تميم الطبعة الثانية – مكتبة لحياة – بيروت .
١٣ – حجة الإسلام أبو حامد الغزالى – د / حمزة النشرتى – المكتبة القيمة – القاهرة .
١٤ – الأخلاق عند الغزالى د / زكى مبارك – منشورات المكتبة العصرية – بيروت .
١٥ – التصوف الأسنى د / مجدى محمد إبراهيم تقديم د / عاطف العراقى مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – الطبعة الأولى ص ٢٠٠٢ .
١٦ – مدخل إلى التصوف الإسلامى د / أبو الوفا الغنيمى التفتازانى الطبعة الثالثة – دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة .
١٧ – التصوف الإسلامى – منابعه وأطواره – د / محمد الصادق عرجون – طبعة ١٩٦٧م مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة .
١٨ – الحياة الروحية فى الإسلام د / محمد مصطفى حلمى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – طبعة ١٩٨٤م .
١٩ – فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه د / إبراهيم مدكور – الجزء الأول – سميركو للطباعة والنشر .
٢٠ – التعرف لمذهب أهل التصوف – الإمام الكلاباذى – الطبعة الثانية ١٩٩٤م مكتبة الخانجى – القاهرة .
٢١ – المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت د / محمود حمدى زقزوق دار المعارف .
٢٢ – ابن تيمية والتصوف د / محمد مصطفى حلمى – الطبعة الثانية ١٩٨٢م دار الصفا – الإسكندرية .
٢٣ – التصوف الإسلامى – نشأته وأطواره د / جميل محمد أبو العلا .
٢٤ – الإنسان فى فلسفة الغزالى – دار الفكر العربى – القاهرة .

٢٥ – الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه د / يوسف القرضاوى – الطبعة الأولى ٢٠٠٤ مكتبة وهبة – القاهرة .
٢٦ – كيف تنال السعادة الحقيقية – الشيخ سعيد عبد العظيم – دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع – الإسكندرية .
٢٧ – مباحث فى التصوف الإسلامى د / عابد منصور عابد – طبعة ١٩٩٧م أسيوط .
٢٨ – دراسات عقلية وروحية فى الفلسفة الإسلامية د / على عبد الفتاح المغربى – الطبعة الأولى ١٩٩٥م – مكتبة وهبة – القاهرة .
٢٩ – المذاهب الأخلاقية فى الإسلام د / عبد الحى محمد قابيل – طبعة ١٩٨٤م دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة .
٣٠ – المعرفة الصوفية دراسات فلسفية فى مشكلات المعرفة د / ناجى حسن جودة الطبعة الأولى ١٩٩٢م – دار الجيل – بيروت .
٣١ – الفلسفة الإسلامية فى المشرق د / سيد حسن مبارك – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م مطبعة الصفا والمروة – أسيوط .
٣٢ – مدارج السالكين – العلامة ابن القيم الجوزية الطبعة الأولى ١٩٨٣م – دار الكتب العلمية – بيروت .
٣٣ – حولية كلية أصول الدين بأسيوط – العدد السادس عشر – طبعة ١٩٩٨م – بحث تحت عنوان – المعرفة الصوفية عند الغزالى .